النجم الحائر (إنجريد برجمان)

وجْه أبدعه الخالق فصاغه بإتقان عذب رقيق . شفاه تنطق بلا كلام . وعينان حافزتان تحرسان مخزون الرأس من الأحلام ... والأوهام .. والآلام ، وهما من قبل ومن بعد : آسرتان . مسْحة من الوداعة الصافية لا تُخفى شعورا دفينا بالاشمئزاز من مخالطة حلو الحياة بمرِّها ، ومن تسلل الكدَر إلى الحذَر ، فهو التحدى إذَن ، والتحالف مع الزمن ، ولابد فى نهاية المطاف من غالب .. ومغلوب !

تلك باختصار «واجهة» هذه البُنَيَّة ـ أو البناية ـ الإسكندنافية الأصل والنشأة : إنجريد بِرْجِمان . كان خليقا بها – بهذا الحُسن وهذا الإبداع فى الخَلْق – أن تنعم بحياة أُسَرية هادئة هانئة ، فى بلد يتَّسم بوفرة من « الجمال » فى كل شىء : فى الطبيعة والطبائع ، فى الثراء والنماء ، فى المَلاَحة والسماحة ، فى البعد ـ نسبيّا ـ عن صخب الأحداث وهموم العالم ، وصراعات الشعوب ، وطموحات الحمقَى ، وتفلسف الأغبياء . لكنها حملتْ حُسنها وعذوبتها من ستوكهولم إلى برلين، ومن هوليوود إلى روما ، ومن نيويورك إلى لندن ، تحاول أن تَفرض حذرها وتحفّظها الوجِل على عالم السينيما السائب الصاخب المنْفلت .

هل كان خطأ أم صوابا ـ ولسنا نملك الحكم ـ أن تغزل تلك الفتاة اللوثرية الفكر، التى نشأت فى كَنَف خالة تحيطها بمجموعة من الأناجيل ومن القيم والمعانى الطيبة ، تَغْزل خيوطا لنسيج مستقبل حياتها بمغزل « الحب ».. أو ما يُتَوَهم أحيانا أنه الحب ؟ خضعت له ، وأخضعت لسطوته وسلطانه كل ما تملك من مال وجمال ، وسمات وصفات ، وأسرة وشهرة ، وبيت وأبناء .. ودخلت مرغمة فى عراك مع المواقف والرجال . عراك ظاهره هادىء متَّزن ، وباطنه لهيب متَّقد . وفى النهاية ، أحال اللهبُ الجمالَ إلى تمثال ، والسينيورة (١) إلى أسطورة : هى جزء من تاريخ السينيما ، ورواية لم يكتبها مؤلف ، ولم تصنعها أفلام .

مع أبيها بعد وفاة أمها وهى طفلة

فى سن الثالثة تصبح يتيمة الأم ، وبعد قليل من سنوات تَفْقد الأب . كان مصورًا فنيّا . فالفن إذن ، والمشاهد والألوان ، واضطراب المشاعر والأحزان ، أول ما تفتحت عليه عين

(١) سينيورة بالإيطالية أى سيدة .

الطفلة ، واهتز له قلبها الصغير . اختفى إلى الأبد من قاموس كلماتها ذلك النداء الفطرى الأساسى العذب : «يا أبى ..» و «يا أمى ...»! كفَلَتْها إحدى خالاتها : سيدة محافظة متدينة حازمة ، أرادت أن تَطمس فى وجدانها بريق الفن ، وتُطفىء من خيالها جماليات اللون ، ففرضت عليها تعليما قاتما صارما ، أحال طفولتها وصباها إلى ضغوط وقيود ، وقبس من ظلال الأديرة وظلمات السجون ! فتحالف شقاء اليُتْم مع شتاء المشاعر مع اشتهاء التمرد ، لدفع الفتاة المسكينة ـ بنت الثلاث عشرة سنة ـ إلى إعلان العصيان . إنها الآن على عتبات مرحلة التفتح ، وشراهة المعرفة الشاملة ، وشق طريق لها فى الحياة ، يبعد ـ ولو قليلا ـ عن طنين أجراس الكنائس ، ويقترب ـ حتما وكثيرا ـ من رنين أحلامٍ تؤانِس . فطبول العصر ولو جوفاء ، تردد فى صبح وكل مساء : شباب الغد هَيَّا فى الحال ، حطمْ قيدك تتحققْ آمال !

لم تنتظر إنجريد .. قررت على الفور أن تصبح ممثلة . فالمسرح ـ منذ القدم ـ أب الفنون ، والسينيما ـ بنت العصر ـ جامعة الفنون . على هذا الأمل البراق ، طوت رغائبها وانطوت على نفسها ، تتهيأ فى ترقُّب وصبر حتى اقتربت من سن الثامنة عشرة ، فأصرت على الالتحاق بالمدرسة الملكية لفن الدراما فى العاصمة ستوكهولم . وسرعان ما فُتِّحت لها الأبواب : فجمالها مبهر مفرط.، وموهبتها ساطعة واعدة ، وعزمها ثابت لا يَحيد . وسرعان أيضا ما أصبحت ممثلة شهيرة .. بعد أقل من أربع سنوات فقط من التحاقها بالمدرسة الملكية .

وساعدتْها الأقدار .. إذ لا تعوقها أعذار !

فى عام ١٩٣٧ ، وقد بلغتْ الثانية والعشرين ، صادفتْ حَدَثين كبيرين غمراها بالسعادة المتوهجة : شاهدتْ هوليوود ـ مدينة السينيما الأمريكية ومركز السينيما العالمية ـ نسخة من فيلمها « استراحة أو فاصلة موسيقية Intermezzo »، فأعلنت

على الفور أنها جديرة بأن تكون وريثة عرش « جريتا جاربو » ـ النجمة الشهيرة التـى اعتزلت بإرادتها فن التمثيل مبكرا وهى فى قمة مجدها ـ على المستوى العالمى. والحدث الثانى : زواجها من « بيتر ليندستروم » ، جراح ، راقص ، لاعب ملاكمة وانزلاق ويكبرها بتسعة أعوام . أحبت زوجها ، وأهدته ابنتهما « بِيا » . لكنها أيضا تحب السينيما ، تحب الوقوف أمام الكاميرا ليقف أمامها حشد من الجماهير ـ وفى الخيال حشود أكبر وأضخم عبر العالم ـ تصفق وتهلل وتُبْدى بمختلف الصور حبها وإعجابها .

إن مشكلة هذا الشىء الذى يسمى « الحب » أنه أشكال وألوان ، مستويات ودرجات . وآفة تدميرها كلها أو بعضها : أن يتقدم أحدها عن مكانه بالقلب أو يتأخر ، أو أن ترتفع حرارته أكثر مما يجب فيصيب الجسد كله بالحمى ، فالطيش ، والجنون . وربما يشتعل فيحرِق ويدمر ؛ أو أن تنخفض حرارته أكثر مما ينبغى فيَبْرد ويبرِّد ، وربما يَجْمد فتتجمد معه مشاعر وعواطف وانفعالات كان أوْلى بها وأنفع أن تَنشط وتقوى فتتأثر وتُؤَثر ، وتفيض وفاء وعطاء ومزيدا من بهجة النفس وإمتاع الآخرين . لكن ، يبدو أن قلب فتاة الشمال البارد لم يَحفظ توازن الأبعاد والأحجام والمقادير المجتمعة داخل قلبها، فيما يتعلق بحب الزوج، وحب الابنة، وحب العمل، وحب الشهرة ، وحب الترف ، وحب النموذج الذى وضعتْه لنفسها فى الحياة ... فأحست بثقل فى القلب دفين ، وضمور فى مشاعر وإلى أخرى حنين . وطاف بخيالها وهى تتلبَّس شخصيات الدراما التى تجسدها أمام الكاميرا ، أن «دراما الحياة » تهيىء لها « دورا » مأساويّا يناسبها .. يليق بها وما بلغت من مكانة ظاهرها إعجاب شديد ، وتألق فى دنيا الناس.

وكيف كان ذلك ؟...

شاءت الأقدار أن تَحضر عرضا لفيلم المخرج « روسِّلينى » : « روما مدينة مفتوحة» . فانفتح قلب إنجريد لتستقبل ـ على البعد ـ طيف روسلينى ، ولم تجد

حرجا – وهى نجمة هوليوود اللامعة فى علیائها ـ أن تكتب إليه على الفور مبدية إعجابها بمخرج إيطاليا العبقرى الكبير ، وتُشير من طرف خَفىّ إلى رغبتها ـ بل سعادتها ـ فى أن يُخرج لها فيلما يناسبها ، أى يناسب التقاء القمتين . فكانت «دراما» على الشاشة فى إيطاليا ، و « دراما » بعيدا عن الشاشة داخل أمريكا ، و«دراما » تصلح للشاشة السينيمائية : فى بيت الأسرة .. كيف ؟.. من هنا تبدأ قصتها .. قصة إنجريد برجمان وتنقلها ـ وإن شئتَ تَقْذفها ـ فى بحار العواطف المتقدة المختلطة ، والعواصف المزمجرة المرتَقَبة ، والزوابع المثيرة للظنون ، فالطعون ، فالسخط اللعين . وسط هذا كله ، وضعتْ لوثرية ستوكهولم قلبها ـ المتعدد الأدراج ـ فى زورق بلا شراع ، وأطلقَتْه يمضى على هواه فى خِضَم هذا الشىء العجيب المريب الذى يسمى الحب !

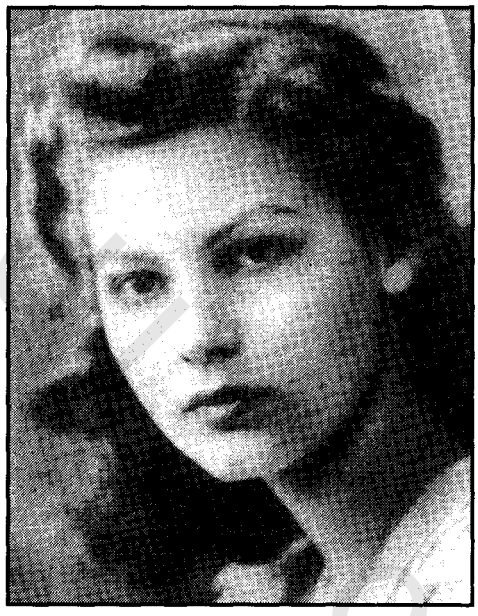

إنجريد برجمـان فى سن السابعة عشرة

« .. قَدَّمونا للتعارف ، وهمس « بيتر » ـ زوجى ـ فى أذنى بكلمات لم أفهمها : أننى أطيل النظر إلى عينى روسلينى ـ إن ما يقوله (روسلينى) ، كلماته ، المعانى والصور ، والتعبيرات التى يستخدمها لا تشبه مطلقا فى شىء ، ما يجرى على لسان الآخرين » .. هكذا وصَفَت إنجريد برجمان لقاءها الأول مع روبرتو روسلينى فى حانة (بار) فندق جورج الخامس فى باريس، وهى فى صحبة زوجها بيترلايند ستروم . من تلك اللحظة، وفى هذه الحانة ، بدأ ميلاد عاطفة فوارة جديدة ، سوف تعيش تسع سنوات ، وتكتسح فى تدفقها قدرا كبيرا من مخزون التبجيل والتقدير والإعجاب عند الناس ، وفى خيال الناس .

كانت إنجريد فى سن الثانية والثلاثين .. زوجة ، وأم الصغيرة « بيا » ، وتحتل منذ عشر سنوات مكان الصدارة فى كل مجلات العالم ، مع إشادة متواصلة بالسعادة التى تغمر بيت أسرة مثالية لفنانة كبيرة قديرة ، تهفو إليها ـ وتُجلها ـ قلوب الملايين ، خاصة فى بلد الدولارات ذات الرنين ، وكان لم يزل بعد حريصا على بعض القيم والتقاليد . فحياتها بعامة : نظيفة ، وسلوكها دائما : محترم ، وسُمْعتها من الجميع : مُصانة . وفجأة .. إذا بذلك كله يهتز ، يتأرجح ، يترنح ، يسقط ، ينهار ....بين عشية وضَحوة نهار ، فيعلو ويعلو يُثار الغُبار ، يفجَّر لوْما وزجْرًا لعار !

فى الواقع لا فى السينيما : إنجريد برجمان وزوجها بيتر لندستروم الذى يكبرها بتسع سنوات

هناك شىء عجيب ـ وإن كان من حُسن حظها ـ فى حياة إنجريد برجمان : أن عواطفها الفوَّارة المتوهجة تستمر هكذا سنوات وسنوات ، ثم إذا بها تدخل مرحلة الفُتور والخمود ، فتهبط سريعا حرارتها ، وتتحوَّل من مَسْخَنَة إلى مَبْرَدة . وهنا ـ فى ذلك الوقت ـ يتيقظ استشعارٌ دفين فيها ، يتنبَّه ، يتحفز ، يُستَفَز ، فيوجهها إلى ما تحسبه أجدَى لها وأنفع ، من غير ترتيب سابق من جانبها ولا تخطيط . وكل رجل فى حياتها ارتبطت به ، دفعها قُدُمًا وأضاف إليها ، وإن كان الخلاف ـ أو الاختلاف ـ من بَعد ، فى قيمة ومقدار ما أضاف وأعطى . وكأنها تركتْ لقلبها مكانها من عجلة القيادة : يوجِّه مسارها فى زحام الحياة ، ويختار لها المنعطفات ، والوقوف فى التقاطعات، ثم الانطلاق فى مجَرى الطريق . فى سن الحادية والعشرين ، اقترنت ببيترليند ستروم ، الذى دعمها وساندها وساعدها للمضىِّ فى تسلسل متناسق ، فى صبر وإصرار ، لتحقق حلمها الكبير لتصبح أعظم نجوم الممثلات فى هوليوود بعد «جريتا جاربو » . وماذا بعد ؟.. لابد من : ماذا ؟ طالما كان : بَعْد . لأن الثبات الدائم ـ ولو على أعلى القمة ـ خمُود وخمول وخضوع إما لذبول ، وإما إلى موت .

من الصعود إلى القمة مع حب بيتر المتزن ، إلى الروائع الفيلمية الكبرى ـ التى لا تُنْسَى بمرور الزمن ـ مع حبها الجنونى لروبرتو روسّلينى : الرجل الذى عشقتْه وتهيأت له من قبل أن تراه . وبسببه ، ومن أجله ، كان عليها أن تواجه أمام نفسها تحديًا صعبًا ظلت تتحاشاه ، بمهارة حذرة عدة سنين : التخلى عن اشتهاء تحقيق الذات !... بل وفوق ذلك (ويا للهول ..! بتعبير نجمنا الكبير يوسف وهبى !): تَحَمُّل الخزْى والعار ، علانية ، من ملايين وملايين المتطلعين إليها فوق القمة !

كان معروفا فى العصر الذهبى للسينيما العالمية – بين الثلاثينيات والستينيات – أن النجوم الكبار ، رجالا ونساء ، يجب أن يظلوا فى تصوُّر وخيال ملايين المعجبين : مثاليين متألقين.. ولو تطلب الأمر «تمثيلا» فى الواقع والظهور العام .

لابد أنها فكرت طويلا وعميقا وحسبَتْ حساباتها بدقة أو بلهْوجة .. سيان ! فقد حَسَمت الأمر فى النهاية ، واستجابتْ لنداء ، بل صراخ قلبها ، وألقت نفسها بين ذراعى روسلينى ليصبح بعد لأْى زوجها الثانى . ثم بعد سنوات ، يحتل الثالث : «لارز شميدت » مكانه ، ليُختتَم « سيناريو » الحب الذى صنعت به إنجريد برجمان «فيلم» حياتها .. الخاصة والعامة .. معا ! وكان دفاعها عن قراراتها التى أملاها «حبها » ودفعها لسخط الغاضبين والناقدين : أنها كانت صريحة وصادقة مع نفسها ومشاعرها ، ولم تشأ أن تعيش حياة « مزدوجة » لها ظاهر مقبول من الناس والمعجبين بفنها ، وباطن تمقته ولا ترضاه ، وإن غَفلت عنه عيون ، أو أغمضت غيرها عليه الجفون . فرفْض الزيف يعنى ضِمنا قبول الصحيح ، وترْك الخطأ (أو الخطيئة) مدعاة لقبول الصواب (أو الفضيلة) .. مهما كان الثمن ، أو النتيجة .

ولعل هذا المنْحَى من التفكير ـ إن كانت تفكر حقّا على هذا النحو ـ هو الذى عَصَمها من الانهيار والتمزق ثم الانفجار (كما سيحدث فيما بعد مع ماريلين مونرو)، ومنَحها قدرا كبيرا من التماسك والتوازن فى « وصَلات » وتشابكات مسار طريقها ، أى فى الفترات الفاصلة بين تغيرات مراحل حياتها ، فمضت تعْبُر راضية ، وتتخطى العقبات بسَكينة وسلام ، أو بقدر كبير من السكينة فى الحدْس ، والسلام مع النفْس . لكن الجماهير لم تقتنع فهاجمت . وأمريكا فى ذلك الوقت كانت تختلف إلى حد كبير عن أمريكا اليوم (رغم أنها فترة زمنية نسبيّا قصيرة) . ولو كانت إنجريد برجمان تزحزَحَتْ قليلاً وعاشت فى السيتينيات أو السبعينيات بدلا من الأربعينيات والخمسينيات ، لَمَا غَضب أو أغضبها أحد ، ولما تنكر لها أو أنكر سلوكها ـ على الإطلاق ـ أحد !

بداية المشكلة ، أو الأزمة ، أو ما أطلقوا عليها فى كل وادٍ ونادٍ « فضيحة » ، لم تكن عند تخلى إنجريد عن بيت الأسرة الأول وفيه الابنة والزوج ، ولكن كانت البداية قبل ذلك بكثير : من أيام الصبا والنشأة الأولى .

كانت حقّا جادة منضبطة ، وهذا حَسَن مطلوب ، لكنها أفرطت فى الصرامة والخشونة ، وفى الاستغراق الشديد فى ممارسة الشعائر والطقوس ، وهى فى داخلها غير قانعة ولا مقتنعة ، ورهان فى النهاية على إعلان التحدى : أن تصير كما تهوَى ولا تجرؤ أن تصرح به : إنجريد برجمان .. على حقيقتها غير المصطنَعَة . وهى ـ لجمالها وشبابها ـ لابد وأن صادفها فى بيئتها كثير من المعجبين أو المحبين ، لكنها لم تستطع أبدا أن تجيبهم أو تستجيب ، يحجزها تلقائيّا وبقوة ، ما تلقَّتْه من تعليم لوثرى ضاغط عابس ، ونظام فى البيت – مع غيبة الأبوين – فظ لا يلين . فلم يكن غريبا أن يتحول الضغط إلى ضغينة ، والإفراط إلى انفراط ، والخوف إلى تحدٍّ ، فانفجر البركان ، وأعقبه زلزال .. وفى السويد ، كما فى الغرب الأمريكى ، وكما فى الشمال الإيطالى .. زلازل تَهُز، وبراكين تزمجر وتثور !

فى سن الثانية والعشرين أعادت بطولة فيلم : «استراحة موسيقية » فى هوليـــوود

وفى الحق ، ظَل الخوف ، وآثار التربية والتعليم تلازمها وتكبح اندفاعاتها ، حتى بعد ارتفاع نجمها وتضخُّم شهرتها وانقضاء سنوات فى بيت الأسرة الهانىء السعيد. ومَن كان يظن لحظة ـ وربما هى أيضا ـ أنها بعد عشر سنوات مع بيترليند ستروم ، هذا الزوج الواثق من نفسه ، الواثق من حبها له ، الواثق من مركزهما المالى المتين ، الواثق من تعلقهما معا بابنتها الصغيرة .. من كان يظن بعد ذلك كله أن تترك البيت وتنتقل إلى بلد آخر وبيت آخر ، وزوج جديد ؟ إنها عرفت بيتر منذ كانت فى الثامنة عشرة ، فى ستوكهولم . كانت تدرك يومها جيدا أنها عبوسة، غير أليفة ولا مرحة . تمشى متقاصرة مُنحنية الظهر قليلا حتى لا تبدو ـ رغم حسنها الغالب وأنوثتها الوافرة ـ طويلة منفِّرة. وهو فتى وسيم ،جاد ، يكبرها سنّا ، يقود سيارته الفارهة المكشوفة ، ويتابع بنجاح دراسته الطبية ، ويؤدى بفلاح رقصات الفالس الرشيقة الكلاسيكية . والأهم من ذلك : أنه يراها جميلة جذابة، جديرة بأن تُحب . راقبها عن قُرب وعجبًا رأى ! ما إن تنطفىء أنوار الكشافات فى الاستوديو الذى تعشق التمثيل فيه ، وما إن تَفرغ من أداء الدور الذى أفرغت فيه شحنات قوية من العواطف الملتهبة الجريئة ، حتى تَعُود على الفور إلى طبيعتها الغلاَّبة : فتاة خجولة شديدة الحياء ، يحمرُّ وجهها وتَجْفل وتقطِّب حاجبيها إذا ما اقترب منها رجل أكثر مما يجب !

اطمأن بيتر وأسرع يعُدّ نفسه ويهيىء لمستقبلهما معا . وتزوجا . إنه محبوب من الجميع، يجدون فيه المثالية والنضج المتزن . وهى أيضا كذلك .. وأكثر من ذلك : إنها دائما مطيعة لكل ما يقول : « عند اتخاذ القرار ، ودائما يقال لهن ماذا يَفْعَلْن ، فإن الرجال يجعلون النساء غير قادرات على التقرير باستقلالية . وفى الحياة ، علَّمنى الرجال أن أكون تابعة معتمدة على غيرى . أبى أولا ، ثم بيتر ، حتى قبل أن نكون خطيبين . وليس هذا خطأه : فأنا التى بدأتُ أولا أستشيره وأسأله النصح ، وأن أطلب مساعدته . كان بيتر يقرر كل شىء بالنسبة لى ، وأنا أسلمتُ نفسى إليه فى

كل شىء . كانت فى الحياة أمور كثيرة جدا أجْهلها . كانت تُخيفنى وتُفزعنى ، وكنت أخشى أن أعرفها....».

إنه بيتر الذى وافق عندما عَرَضت هوليوود عليها أن تسافر إليها من السويد لكى تصوِّر فى أمريكا إعادة للفيلم القديم: « استراحة موسيقية Inter mezzo ». وأصغَتْ هى إلى اتفاقه تليفونيا ، بينما كانت تَصْنع التريكو . وهو نفسه بيتر الذى قال : نعم ، وذلك عندما قرر المخرج « ديفيد سلزينك » أن يضم إنجريد إلى « باقة » ممثليه وممثلاته . ثم هو أيضا ـ بيتر ـ الذى أعاد « صياغتها » موضوعا وشكلا لتكون ممتازة ومتميزة سواء فى الحياة العامة أم على الشاشة ، قالت :

« .. ويعلم الله ، كم عانيتُ وكابَدْتُ واحتملت من بيتر منذ الجلسات التمهيدية الأولى (للتمثيل فى أمريكا) ! . فيقول : إنكِ تجرجرين رِجْليك . التجاعيد عميقة بين عينيك .. كُفِّى عن تحريك أصابعك أثناء كلامك .. اِجْلسى معتدلة القامة .. انتصبى واقفة .. لماذا تَميلين برأسك دائما إلى اليسار ؟. . كان حقا رائعا . لقد قلتُ له من قبل: حتى ولو قدِّر لى أن أتوقف عن حبِّك ، فإننى لن أستطيع الحياة بدونك .. » .

أرادها أن تكون رشيقة ، فوضع لها نظاما للطعام ، فكانت بدافع الجوع تتسلل إلى متجر للحلوى ، تأكل سرّا قطعة من الفطائر بالموز ، ثم تُنكر كالأطفال أنها زادت بعض الجرامات .. ويُجبرها أن تمارس تدريبات شاقة على أجهزة تخفيض الوزن (التخسيس) ، فإذا ضاقت صَدْرا وتذمَّرت تَعلل بأن هذا كله لصالحها . فتهز رأسها فى صمت متظاهرة بالاقتناع ، وتكف عن تناول الآيس كريم الذى تهواه ، وتكتفى بمراقبة التجاعيد التى تظهر بين عينيها . فإذا تهيأت للخروج معه فى سهرة، نَصَحها ألاَّ تفتح فمها بكلمة . وتطيع صاغرة . فإذا نسيتْ النصيحة وشاركتْ فى الحديث مع المدعوين إلى السهرة ، لم تَسْلم فى طريق العودة من التبكيت والتجريح : « ما كان يجب أن تتحدثى هكذا . إن وجهك ينُم عن الذكاء الشديد ،

فاتركى الناس يعتقدون ذلك. ولكن ما إن يبدأ فمك بالكلام ، إلا وخرج منه هُراء »! فتلوذ بالصمت. وتحدِّث نفسها فى خجل : لابد أنه مُحِق ، إذ يرجع الفضل إليه يقينا فى أنها لمعتْ وازدادت نجاحا وشهرة، فالأفلام التى تمثل فيها تتلاحق بلا انقطاع ، والتفوق متتابع بلا إخفاق، حتى سَرَت فكاهة فى هوليوود تناقلها الناس على سبيل المزاح: «هل علمْتَ ما حدث ؟ لقد شاهدتُ بالأمس فيلما ليس فيه إنجريد برجمان » !

وتمضى مع أفكارها التى تبتلع بها السخرية والنقد فى صمت وهى ما زالت فى طريق العودة إلى البيت : إنها الآن تقف أمام الكاميرا فى الصدارة نِدًّا لعمالقةالتمثيل المحبوبين .. هَمْفرى بوجارت ، شارل بويد ، جريجورى بك ، كارى جرانت ، سبنسر تريسى ، روبرت مونتجومرى ، جارى كوبر ... من أجل هذا حقيقة تعيش : « فى الصباح أقفز من السرير . وفى المساء أشعر بغُصَّة وأنا أغادر الاستوديو . ودائما أشعر أننى أترك فيه جزءا منىِّ » . ألم تقل ذلك بصدق ؟!

فى الحق ، إنها تترك فيه بالفعل بعضا منها : الإحساس بأنها لا تَحيا فى عالمها الداخلى الصغير ، فى بيتها ، على نحو جيد متكامل ، وهو هو البيت نفسه الذى تعتبره

مع جارى كوبر فى فيلم « لمن يدق الجرس ؟ »

مجلات هوليوود مثالا للسعادة الزوجية ، وتؤكده هوليوود فى أفلامها بين الحين والحين ، عندما تختارها « لتمثيله » وهى تتقاسم البطولة مع كبار النجوم : مع جريجورى بك ، أو مع جارى كوبر الذى مثَّلت معه : « لمن يدق الجرس ؟ » ..

تَم تصوير الفيلم بعيدا عن موقع هوليوود ، وعن الثرثارين هواة القيل والقال ، فكان باستطاعتها أن تفصح عن انفعالاتها ومشاعرها . كانت فى قمة السعادة أنَّ «ماريا» ـ التى تمثل شخصيتها فى الفيلم ـ تقاسى فى داخلها الألم والعذاب . واعترفت فيما بعد: « هذا خطئى .. كان تصوير هذا الفيلم من أسعد أوقات حياتى ، وظهر هذا بوضوح على الشاشة . لقد عشْت بحق فى غمرة من الارتياح الهنىء وأنا أؤدى صورة صادقة أمينة لشخصية ماريا المأساوية المعذَّبة» . ولكن ، بعد اللقطة الأخيرة من الفيلم بدا للجميع – وهى فى غاية الأناقة – وكأنها خارجة من بعيد.. من المُطَهِّر. حتى إن جارى كوبر نفسه اعتراه الذهول . قال فيما بعد : « طوال حياتى ، لم أتقابل مع امرأة فى مثل هذا الإبداع فى الأداء . ولا أظن أن امرأة أخرى كانت تُكن لى من مشاعر الود والتقدير مثل شعور إنجريد . ومع ذلك ، فى اليوم التالى لانتهاء تصْوير الفيلم لم أفلح فى الاتصال بها ولو تليفونيّا ، للتعبير لها عن إعجابى ». وهذا صحيح، لأنها فى ذاك اليوم التالى أيقنت أن حياتها الخاصة على وشك التصدع بسبب بيتر الذى حاول تدارك ما فات . خافت من المواجهة : أن تخبره بأن شيئا ما يعوق مسار حياتهما. وبدأتْ تفكر فى الطلاق ، وفى الخفاء : « قلتُ فى نفسى : لابد من من عمل شىء ، أن أجد حلا حتى أسترجع السَّكينة والسلام مع النفْس .. ولو بالرحيل إلى مكان ما لا أشعر فيه بالخوف . بدأتُ أدرك أنه من العبث أن أكون زوجة للرجل الوحيد الذى أشعر معه فى داخلى بالخوف ...» وبالخوف من الإنفاق بلا جْدوَى للأموال التى تكسبها ، والتى تحتجز بعضها رصيدا لأيام شيخوختهما ؛ والخوف من التمادى فى قبول دور ولا تستطيع أن تقول : لا ؛ والخوف من أن تنطق بهُراء أو تتكلم بتفاهات ؛ والخوف من زيادة وزنها بضعة كيلو جرامات ؛ والخوف من الامتعاض وعبوس الوجه.

بدأتْ أيضا تتنبه إلى التباعد الكبير بين « شخصيتها التى تدَّعيها لنفسها ويظنها الناس ، وبين ما هى عليه فى الواقع ؛ بين أفلام هوليوود وبين الحقيقة القائمة ؛ بين إنجريد المزيفة وبرجمان الصحيحة . إن حياتها ترتكز على رجل يضع الحواجز والعراقيل فى طريقها ، وربما تزداد مستقبلا ، وها هو يُمهد الطريق لروبرتو روسّلينى الرجل الذى حاز إعجابها وأبهرها فنه قبل أن تراه ، وهى لاتُخفى ذلك أو تكتمه .. لكن شخصا آخر يتسلل إلى طريقها الغائم بالضباب ويتبع مسارها على مَهَل . اسمه: روبرت كابا ، مجرى يعيش فى فرنسا . قابلته لأول مرة فى باريس فى أثناء جولة فنية لها من أجل الجنود الأمريكيين المقيمين فى ألمانيا . إن روبرت مصور حربى ، وهو رجل متحرر طليق ، جرىء ، فيه شىء من التهور الطائش .. وإذا بالجادة المحافظة ذات النشأة الدينية الصارمة التى تحيطها الضغوط والقيود والهموم ، فجأة ، تقدح فى ذهنها فكرة التحرر . وتفصح لروبرت ، فيقول الجرىء المجرِّب : « أنتِ مجنونة . أنت الآن صناعة كاملة منْتِجة ، مؤسسة قائمة بذاتها . لابد أولا من عودتك إلى كيانك الإنسانى الطبيعى الصحيح . فأنتِ لا تفعلين إلا ما يقوله زوجك ، وما يقوله المنتجون . أنتِ لا تعرفين إلا العمل كالآلة ، ولا من الحياة شيئا ذا قيمة ، إذ لا وقت لديك للاستمتاع بالحياة . إنك مثل عربة منطلقة بلا توقُّف تجرى بثلاث عجلات ، وسوف تجدين نفسك يوما فى حُفرة » .

اعترضَتْ إنجريد من حيث الشكل ، ولكن فى أعماقها رجَّحت أنه مُحقّ . لكن بوب (روبرت) جاء مبكرا جدا فى حياتها . إنها ما زالت أقل قُدرة وأضعف عزما على الوقوف وحدها ، وكما تريد . فعادت إلى هوليوود وأغرقت نفسها فى العمل . مثلت فيلمين لهيتشكوك : « بيت دكتور إدواردز » و « المقيَّدون بالأصفاد » . لحق بها بوب محاولا استمالتها . ولكن : « لم يكن ذلك سهلا على الإطلاق . فقد كنتُ سيدة مخلصة ، شديدة التمسك بالأخلاقيات ، شديدة الحياء والحْشمة قبل أى اعتبار آخر . لا أنكر أننى كنت أيضا شديدة الميل إلى كابا وتمنيتُ فى نفسى لو كان لى

زوجا». تلك أمنية من المحال أن تتحقق ، فهى تفهمه جيدا ، وهو لم يُخْف عليها : « لا أستطيع أن أتزوجك . فأنا لا أطيق الارتباط الدائم . إذا طلبوا منى مثلا أن أطير غدا إلى كوريا لتغطية (لتصوير) المعارك وكنت متزوجا وعندى طفل ، فلن أستطيع السفر ، وهذا ما لا أريده . لستُ من النوع الذى يصلح للزواج » . وفى يقينها ، فى رصيد مبادئها ، أن من تُحب يجب أن يكون زوجا . تلك عقدة مشكلتها . رحل كابا ثم عاد ، ثم رحل وعاد . ولا فائدة ، فهى على موقفها ومبادئها، وإن خالف ذلك رغبتها وهواها : «أدركتُ أن شيئا لن يتغير ، ثم أحسستُ أن تأثيرهُ أحدث بعض التغيير فى داخلى » بعد سنوات ، انفجر لغم فى روبرت (بوب) كابا وهو يصور المعارك فى شرق آسيا .

نتيجة لما أسفر عنه تأثير بوب ، اتخذت إنجريد بعض القرارات المتعلقة بالمهنة أو العمل : تركَتْ العمل مع منتجها الدائم (ديفيد سلزنيك) وأصبحت هى المنتجة لأفلامها . ثم وقَّعت ـ بمفردها وبقرارها وحدها بدون زوجها بيتر ـ عقدا للتمثيل على مسرح برودواى ، لتؤدى دور الشخصية التى طالما كانت تحلم بها : جين دارك. لم يتطرق الشك إلى بيتر . بل إنه وضع خطة لتوسيع البيت وإضافة حجرة لطفل جديد .

دخلت إنجريد بحذر مجال الإنتاج السينيمائى . جاءت الفكرة مصادفة ، أو هى الأقدار ! دخلت ـ تزيح الملل ـ دار عرض سينيمائى صغيرة . الفيلم : « روما مدينة مفتوحة » . المخرج إيطالى غير معروف فى هوليوود : روبرتو روسّلينى . فى البداية كانت الدهشة . ثم : الإبهار . وأخيرا : الدموع . يا له من فيلم ! بعد فترة ، شاهدتْ فيلما آخر لروسلينى فى سينيما أيضا صغيرة تكاد تكون خالية من الجمهور : «دخلْتُ دار العرض ، واتخذتُ مكانى . بعد قليل ، شعرتُ كأننى تسمَّرتُ فى مقعدى . وحتى بعد انتهاء العرض لم أستطع النهوض فترة . إنه فيلم عظيم آخر ! هذا الرجل

صنع فيلمين عظيمين من أفلام الروائع الفنية ، ثم ها هما يُعرضان فى دور عرض صغيرة تكاد تخلو من مشاهدين . فكرتُ على الفور أن أكتب إليه . ها هى عشر سنوات تنقضى وأنا أمثّل وأكررُ النوعية ذاتها من الأفلام ، الرومانسية . الآن أريد أن أمثل شيئا واقعيّا .. شيئا مثل الذى شاهدتُه » .

وكتبتْ إلى روبرتو روسلينى :

« سيدى العزيز ..

شاهدتُ بعض أفلامك . أحببتها كثيرا .. إذا كنت فى حاجة إلى ممثلة سويدية تتحدث جيدا الإنجليزية، ولم تنْس بعد ألمانيتها وتفهم جيدا الفرنسية ، ولا تعرف من الإيطالية إلا « أنا أحبك » ، فإننى على استعداد للحضور إليك لعمل فيلم معك » .

ثم أتبعتْ رسالتها الأولى بثانية فيها مزيد من الجرأة والوضوح :

« سيدى العزيز :

تلك عشر سنوات مضت حرمْتُ نفسى فيها من مُتَع الحياة ، إذ خلَّيتها تماما للخضوع إلى منهج لم يجلب لى السعادة وأريد أن أتخلص منه » .

لم يسمع روبرتو صرخة الاستغاثة التى أطلقَتْها إنجريد فى حينها . إذ فى اليوم الذى وصلت فيه رسالتها إلى ستوديو « أفلام مينرفا » الخاص به ، فى ذلك اليوم ، اشتعل حريق بالاستوديو !بعد فترة من كارثة الحريق ، وأثناء البحث فى بقايا الحطام المتخلف من النيران ، عُثر على رسالة قادمة من هوليوود بتوقيع « إنجريد برجمان » . فلما قرأها روبرتو صاح تعجبا : « أنا لا أعرف من تكون هذه الإنجريد برجمان » !

إن روبرتو يحتقر الممثلين ، وأفلام الآخرين لا يهتم بها مطلقا .. ثم إنه عمليّا لا يذهب أبدا إلى دور السينيما . لكن المحيطين به ألحوا وأجمعوا . ولماذا لا يرد ولو

مجاملة؟!.. نزولا على رغبتهم كتب إليها يقول بأنه يرغب حقا فى كتابة فيلم من أجلها. بل واختار له الاسم : « سترومْبولى ـ أى : انفجار بركانى » !

كان اللقاء فى باريس بفندق « جورج الخامس » وروسلينى خالٍ من أى ارتباط . فا لممثلة « أنَّا مانْيانى » التى كان يعيش معها انفصلت عنه على الطريقة الإيطالية منذ أيام ، بعد أن أفْرغَت على أم رأسه أمام الناس فى مطعم كبير طبقا من الإسباجيتى عندما أخبرها أنه سيخُرج فيلما جديدا لممثلة غيرها !!

أكتوبر ١٩٤٩ .. إنجريد برجمان تبدو سعيدة فى صحبة روبرتو روسلينى فى زيارة لجزيرة سترومبولى .

إنجريد ، وبيتر ، وروسلينى معا .. ثلاثتهم يجلسون فى حانة (بار) الفندق الفاخر الشهير . بيتر ـ كالعادة ـ يناقش تفاصيل العمل والتصوير ، ولأول مرة تدخل إنجريد فى المناقشة ، وبحزم ، ولكن بلطف تزحزحه عن مكانه المتسلط : « هذا الفيلم سوف أتولى أموره بأجمعها » . كانت ترتعد من الخوف وهى تُلقى بهذه العبارة ، لكنها كانت حاسمة . لقد قررتْ أن تمضى فى منعطفها الجديد حتى النهاية. وتنقضى فترة ، يأتى بعدها روبرتو إلى هوليوود لمقابلة المنتج : المليونير الشهير «هُوارد هيوج » ، وينزل ضيفا على أسرة ليندستروم وإنجريد تنظر إليه مَليًا، هائمة حالمة ، وتُنْفِق عن سَعة ، وتلتهم بشهية أطباق الإسباجيتى ! إنها لا تتكلم ، لكنها تحس أن حياتها من الآن سوف تتغير !

وماذا يفعل بيتر ؟ يشرف على إعداد مكان الطفل الجديد بالبيت وتُسِر إنجريد إلى صديقة لها : « فى كل مرة كان يَدُق فيها أحد العمال مسمارًا ، كنت أشعر أنه يَدُق فى رأسى» ! لم تُطق صبرا ، تتعجل الزمن: تترقب ساعة الارتحال إلى روما وبدء تصوير الفيلم . ومن هناك لا تنقطع تليفونات روبرتو . وتكتب هى إليه ، فيستبطىء حضورها . يلح بالإسراع . تطير فرحا . وبيتر فى حيرة ، لا يدرى لماذا تتلهف هكذا على السفر بسرعة . ولكى تزيح عن نفسها كآبة الانتظار لأيام أُخَر . تُفْرط فى التهام الحلوى والآيس كريم ، وتشرح لروبرتو : « إننى آكل طول الوقت . سأصبح بدينة كما تحبنى أن أكون . لم أعد أحتمل . إننى عازفة عن النظر . وعن السمع ، وعن الكلام » .

وفى العشرين من مارس ١٩٤٩ ، بعد ستة أشهر من الإقامة فى باريس ، ترحل أخيرا إلى إيطاليا : « كان وصولى إلى روما أشبه بالحلم . إنه حقا يوم عيد . كان الجمهور حاشدا بالمطار ، حتى إن المشاهد كان يغلب على ظنه أنهم ينتظرون وصول ملكة.. » !

ثم لا تُخفى مشاعرها ، فتعترف : « أعتقد أننى فى أعماقى وقَعْت فى حب روبرتو منذ اللحظة التى شاهدت فيها فيلمه « روما مدينة مفتوحة »، لأنه منذ تلك اللحظات لم يغادر ذهنى وأفكارى مطلقا . وبدون أن أعى ذلك ، منحنى القدرة على حل المشكلة التى كانت تجثم على زواجى الراكد ، وعلى حياتى فى هوليوود طوال السنوات السابقة . لم أكن أُلقى بالا إلى الخروج من تلك المشكلة . ومرت سنوات فى انتظار مَن أتخذ من أجله قرار الرحيل . كان روبرتو هوالشخص المنتظَر ، ولم أتوقع أن الدنيا ستضطرب لهذا السبب ... » .

إن إنجريد بالنسبة لروبرتو تجسِّد عدة تحديات : فهى جميلة ، وفى رباط مع شخص آخر . وهى ظريفة مبهجة تفيض حيوية ، ومع ذلك ، لا هزل معها ، لأنها جادة لدرجة يَخشى معها أن تفلت منه . أما هى ، فعلى العكس منه ، صريحة مع نفسها ، لا تداهن ولا تدخل فى عراك مع الوجود أو ما حولها .

وهنا يقع الاثنان فى فخ الأزمة أو.. الفضيحة ، رغما عنهما ، وعلى غير توقع أو إدراك . إنها فى أمريكا ـ المحافظة ولو ظاهريا ـ نجم لامع ، وهو « الولد الشقى » فى إيطاليا . حاصرتهما الصحافة العالمية والمحلية . ضيَّقت عليهما الخِناق . ترصَّدت لكل صغيرة وكبيرة ، من أبسط لمسة أو دُعابة أو اختلاجة حانية ، فتغافلا عن نظرة العالم إليهما . ثم صنعا فى خيالهما ستارا يغلِّف الجزيرة التى شهدت تصوير «انفجار بركانىStromboli » وبداية سلسلة من الرحلات قدَّم فيها روبرتو إيطاليا إلى إنجريد، ومن خلالها أدركت عمق مشاعر الحب التى يكنُّها حقّا لها. قالت: «احتفظْت بصورة فوتوغرافية أبدو فيها قمة فى سعادة لا تُصدق . ثم كانت بعدها تلك الصورة الشهيرة التى نشرتْها مجلة « لايف » ـ الأمريكية ـ وفيها تتماسك أيدينا .. ومن خلالها وضع العالم كله يده على الدليل بأننى امرأة خائنة .. » .

جاء الوقت الذى ارتأت فيه إنجريد أنها يجب أن تكون فيه صريحة مع بيتر .

كتبتْ إليه : « لم يكن فى نيتى ولا تدبيرى أن أقع فى حب ، أن أرحل إلى إيطاليا بلا عودة . ولكن ماذا أستطيع إزاء ذلك أن أفعل ؟ ولقد كنت أغالب فى هوليوود تزايد إعجابى بروبرتو ، ثم رأيت كم تتشابه نظراتنا إلى الحياة وإلى العمل المشترك . فكَّرت من قبل أننى سأتمكن من مقاومة الشعور الطارىء نحوه عندما أراه عن قرب فى بيئته الطبيعية التى تختلف عن بيئتنا ، ولكن ما حدث هو العكس .. لقد عزمتُ على البقاء بالمكان الذى أرغب أن أعيش فيه . إننى أشعر أنه مكانى ، وأريد أن أظل فيه .. إنى آسفة .. جد آسفة .. » . لم يفهم بيتر ، ولم يدرك ما تحت السطح، ولا ما وراء الكلمات . اكتفى بالقول : « إن امرأة لا ترغب فى البقاء معى ليست جديرة بى، وتلك العلاقة لا تليق بامرأة أصيلة أمينة » .

إن تصرف إنجريد على هذا النحو يدل على أنها كانت تائهة ، ممزقة ، مشتتة . ولسوف تُستنزف مشاعرها وقُواها بين عقلانية بيتر الزوج ومنطقه الهادىء البارد، وبين عاطفة روبرتو الملتهبة المضْطرمة . الأكثر من ذلك ، أن هذه « المشكلة » الثلاثية تفاقمت أصداؤها إلى آفاق بعيدة المدَى ، لم تكن متوقَّعة . ومن فوق منصة مجلس الشيوخ بالكونجرس الأمريكى ، وقف « شيخ » ـ سيناتور ـ يستفز أمريكا الغاضبة الساخطة ، متهما تلك « المرأة الخاطئة الآثمة » ، ثم يعلن أمام المجلس : «من خلال رماد إنجريد برجمان سوف يولد فى هوليوود من هى أفضل وأنبل » . وأسرعت هوليوود تقذف فى البحر نحو إيطاليا كل ما كانت تمجده فيها وتسرف فى الإشادة به ، وتلطخه بالسباب واللعنات لعلها تتلقى درسا موجعا . ومع التهديد ، إذا لم ترجع إنجريد عن غَيِّها وضلالها وتعود صاغرة بأفكار ومشاعر أفضل وأقوم، فإنها لن تقف أمام الكاميرا أبدا ، لتظل بقية عمرها منبوذة مطارَدَة .

أمست إنجريد جريحة ممزقة . وأمضت لياليها وأيامها باكية واجمة : « كنتُ منهوكة القوى ، أرزح تحت حِمْل ثقيل فوق طاقتى ، من الشعو ر بأننى أخطأت » .

وما إن يستقبلها روبرتو حالما حانيا ، حتى تبكى وتضحك معا . وتحاول صديقة أمريكية أن تردها إلى التعقل وإعادة التقدير والتقرير : « إنجريد ، لسوف تفقدين زوجك ، وابنتك ، ومهنتك ، ونجاحك ، وكل شىء .. ». فتجيب إنجريد الواهنة المتْعَبة فى استسلام وإصرار : « نعم .. أعرف ذلك » .

كانت على استعداد أن تفقد كل شىء ، بيتها وبيئتها هناك ، وأموالها التى اكتسبتها وكلها تحت يد بيتر ، ومَقعد الصدارة للنجمة اللامعة ، وحتى أيضا .. ابنتها بيا . طلبتْ فقط حق رؤية البُنَية .

سافر بيتر إلى « مسِّينا » ـ فى إيطاليا ـ للتفاهم معها فى « هدوء » . بينما كان روبرتو يحوم كالمجنون حول الفندق ، تاركا سيارته الفيرارى على أُهبة الانطلاق فى أية لحظة ، فمحركها يهدر بلا توقف أمام المدخل ، مهدِّدا بأنه سيمضى بأقصى سرعة ليصطدم بشجرة إذا قررتْ تركه ! فكان من المستحيل إيجاد حل وسط بين بيتر وروبرتو ، وبين هوليوود وإيطاليا . اختارت إنجريد وقررتْ . إنها فى سن الرابعة والثلاثين وليس لها إلا مطلب واحد : أن تعيش حياة عادية ، بعيدا عن صخب الأضواء والأقاويل والاتهامات والتوترات . وفى مؤتمر صحافى أعلنت أنها هجَرَت السينيما ، وأنها تريد طفلا من روسلينى . فثارت ثائرة أمريكا ، وأعلنت سخطها اللاعن ، واتهمتْها بأنها داعرة .

لم تتوقف حملات التشهير والتجريح تحت عناوين بارزة فى الصحف ، التى كان من ضحيتها شخصية أخرى بريئة : بيا ، الطفلة الصغيرة التى تعيش مع أبيها ، والتى لن تراها أمها إلابعد ست سنوات .

وعلى الرغم من موجة الكراهية المتصاعدة ، وهمسات الناس العالية وهم يشيرون إليها كلما تنقلت فى أى مكان ، حاولت إنجريد جهدها أن تعيش ببساطة شديدة، محافظة على صحتها الجسمية والنفسية : « أصبحتْ لى أسرة جديدة ، وحياة جديدة . قررتُ أن أكون امرأة عادية تعتنى فقط ببيتها » .

ورُب ضارة نافعة . ورُب عاصفة أعقبتْ صَحْوا . ولقد قيل : أُضيرت إنجريد ربما لأنها كانت أسبق بالمضرة . لكنها خرجت من العاصفة بنفع له شأنه عندها: امتلاك الشجاعة لتكون هى ، كما هى .. إنجريد ، تمتلك زمام نفسها ، وتقرر بإرادتها لنفسها ، لاخداع ، ولا انصياع ، ولا كذب ، وتملك حرية المطالبة بحقها فى أن تكون هانئة سعيدة ، أيّا كان نصيبها منهما نوعا ، وشكلا ، وقيمة . لم تعد مجرد دُمية جميلة، ولا تحفة فى خزانة ، ولا مملوكة مقهورة ، ولا دجاجة تبيض ذهبا وحسب .

انتظمت حياتها مع روبرتو . ولولا ما كان يعتريها من حزن موجع على مفارقة بيا ، لاكتملت سعادتها ورضاها . زارها يوما فى روما زميل صديق : همفرى بوجارت ، قال : « لقد ارتكبْتِ حماقة كبيرة بزواجك من هذا الرجل روسلينى . كنتِ على وشك أن تصبحى نجمة هوليوود الأولى . والآن ، ماذا أصبحت ؟» . فأجابت على الفور بكل بساطة : « امرأة سعيدة » . وأكدتْ أنها حقا سعيدة ، حتى مع الفشل التجارى الذى لحق بأفلامها الأمريكية التى أُنتجت مباشرة قبل « الفضيحة » ، بسبب الحملات العدائية المتلاحقة ضدها ؛ حتى مع النجاح المحدود الذى حققته أفلامها الأخيرة مع روبرتو ، والتى مثَّلتها وهى كارهة . إنها سعادة لازيف فيها ولا التواء ، تعلو وتهبط ، يغمرها ابتهاج ،ويشوبها حينا كدر . يأتى هذا الكدر من مزاج روبرتو الطائش ، وميله إلى الصخب والعراك . أما البهجة ، فيشعُّها ميلاد طفلتيهما التوأم : إيزابيلا ، وإنجريد. وأحيانا يتغيب روبرتو ، وأحيانا ما يكون غضوبا لسبب أو لآخر، لكنها كثيرا ما تراه عبقريا متسامحا .

ومع الأيام ، تكتشف ـ بل تُصدم ـ بأنه لم يُخلق للحياة الزوجية . إنه يحظر عليها العمل مع مخرج آخر سواه . وعندما نصحتْها صديقة لها بالتجربة وقبول العمل مع مخرج كبير معروف ، أجابتْها إنجريد فى دهشة : « وأترك روبرتو ؟ كيف

إنجريد تحمل طفلتيها التوأم بعد زواجها من روسليني : إيزابيلا وإنجريد فكانت سعيدة بهما ثم انضمت إليهما ابنتها الأولى : « بيا » .

أستطيع أن أفعل شيئا كهذا ؟ ذلك مستحيل، ولا أرضاه»!، ومع ذلك لم يكن تعاونهما الفنى ناجحا . ثم ظهرت مشكلة أخرى : المال .

كان لا مَحيد عن عمل إنجريد مع مخرجين آخرين . وهى إذا تحررت من الخوف والخضوع ، فإنها لا تواجه زوجها بقدر كبير من الشجاعة والمدافعة . فتحاول إقناعه بالحسنَى : « من الواجب علينا أن نفكر فى الأولاد . يجب اكتساب المال .. وأن ندفع قيمة كل هذه المطالبات (الفواتير) . ماذا تريدنى أن أفعل سوى العمل الذى أُحسن أداءه ؟ » . كانت هذه أول خطوة نحو التصدع .

فى البداية مثَّلت فيلما مع المخرج جان رينوار : « إلينا والرجال » فى عام ١٩٥٦ ، ثم فيلما آخر فى العام التالى مع المخرج أناتولى ليتفاك : « أناستاسيا » . فيلمان بدون روبرتو. ويعود النجاح متحالفا معها من جديد . وهو نجاح يثير حقد ومقتْ روبرتو. إن نجاحها الفنى يتصاعد حثيثا حتى فى سماء أمريكا التى يبدو أنها تغاضَتْ ، وغَفَرت ، وربما كان ذلك بسبب التغير السريع فى إيقاع العصر ، وتقلبات مزاج العصر. انهالت عليها العروض ، بقدر تباعد روبرتو عنها، وإنجريد تدرك ذلك جيدا وتَرْقُبه وتعَيه جيدا ، إلى أن حانت ساعة «تصفية الحساب» ! فكانت المواجهة ببساطة وصراحة ـ كعادتها ـ بلا مداراة ولا خداع : « مع روبرتو عرفْتُ وعشتُ سعادة غامرة غير مألوفة ، وأيضا متاعب خطيرة ، لكن المصاعب جزء من الحياة . يستحيل أن يكون المرء سعيدا على الدوام ، وفى كل وقت . وفى اعتقادى أن أى إنسان ينعم دائما بالسعادة ، لا يسْلَم أيضا من متاعب ومضايقات . مع روبرتو لم تكن الحياة أبدا مُضْجِرة » .

ويسافر روبرتو إلى الهند ويقع فى غرام زوجة مخرج هناك . فضيحة جديدة . وعندما يلتقى بإنجريد فى باريس يتفقان على الطلاق .. بهدوء ، وبلا عراك ، ولا تهديدات : « لا مفر من قَدَر . انتهت الآن كل السنوات الصعبة . كنا حقا سعداء ، وإننا الآن ـ روبرتو وأنا ـ راضيان . تعانقنا فى ختام هذا اللقاء » .

وجدت إنجريد الأم سعادتها الحقيقية مع أبنائها بعيدا عن الأضواء والرقباء .

فقدتْ إنجريد حبها الكبير ، وكسبتْ نفسها . تستطيع إذن مواجهة الحياة بثقة وشجاعة ، ومع رجل آخر : لارْز شميدت ، الذى وصفتْه الصحافة بأنه « الصورة المضادة لروسلينى » ، فهو يدفع قيمة مخالفات المرور ، ويرتب بعناية ملابسه ، وهو سويدى أنيق ، مهذب ، حسن التربية ، ويُنتج روايات مسرحية فى نيويورك ، ولندن ، وباريس . لقد مضت إلى غير رجعة سنوات الإثارة العاطفية : « مع لارز ، تفاهم كامل بيننا . إننا نتشابه حقّا فى كل شىء . أعتقد أننى فى هذه المرة وجدتُ الأفضل » .

تزوجا فى لندن ، ليلة رأس السنة ١٩٥٨ . إلا أن روبرتو لم يكفُ عن العراك مع إنجريد للفوز بحضانة الأبناء ، فتدخل هى مرة أخرى فى صراع مفروض . وتحاشيا لإثارة فضائح ومشاكل وتشهيرات جديدة ، تنسحب وتتنازل . فيعيش الصغيران إيزابيلا ، وإنجريد مع عائلة روسلينى فى روما ، تحت رعاية «بيا » ابنتها الأولى الكبرى التى سبق

بعد روسلينى تزوجت إنجريد من لارزْ شميدت فى لندن ١٩٥٨ وكانت فى الثالثة والأربعين من عمرها .

وضمتها إليها . وفى عيد ميلاد روبرتو الأخير – سنة ١٩٧٦– قضت إنجريد برجمان يوما كاملا مع أسرته ، ومعه ، ومع الأولاد فى روما : « كانت أمسية رائعة . وكم من الذكريات الطيبة استرجعناها .. الكثير ، والجميل ، والطريف.. » !

ومع لارز شميدت ، تذوقت إنجريد رحيق سعادة هادئة وقورة ، ضاعفها إحساسها بالذات ، وبتفوقها فى أداء عملها كما تهوَى ، وبما تتطلبه مهنتها . تلك المهنة التى تشغل كل حياتها . ولئن كان زواجهما دام اثنتى عشرة سنة ، ففى واقع الأمر لم يقضيا معا منها إلا فترات قصيرة .. فما أكثر وأثقل ما كان يشغل أحدهما عن الآخر . وقد ساءهما ذلك أحيانا ، وأحزنهما . ولكن فى النهاية .. بين ذراعى لارْز لفظت إنجريد برجمان أنفاسها الأخيرة وأسلمتْ الروح ليلة ذكرى ميلادها السابعة والستين، بعد صراع طويل مع المرض الخبيث .. السرطان .

رحلَتْ إنجريد فى سلام مع نفسها ، وخلَّفت ـ مع أفلامها المتميزة التى هى جزء له قيمته من تاريخ السينما العالمية ـ خلَّفت أيضًا ذكرى فنانة كبيرة فى ذاكرة الأجيال، وسيدة كافحتْ وعانتْ لكى تنتصر على مخاوفها ، وأحزانها ، ومواقف الحياة الصعبة .. وجعلت من حياتها الشخصية «قصة» أو «رواية» حرصتْ قدر استطاعتها أن تكون: جادة ، بسيطة ، صادقة ، جديرة بالنظر .. والاحترام . فهل أفلحَتْ ؟ !

سنة ١٩٥٧ : عادت إنجريد إلى أمريكا لتتسلم جائزة الأوسكار عن فيلمها « أنا ستاسيا » . فاستقبلها الجمهور بترحاب فى المطار ولافتات كأنها اعتذار ، مثل : « نحييك يا عزيزتنا إنجريد » .. « افتقدناك يا برجمان » ..

***